الحرب غير النظامية والقوى القتالية غير الحكومية: إسرائيل وحزب الله

بقلم جورج إميل إيراني، مدير برنامج أفريقيا والشرق الأوسط
مركز توليدو الدولي للسلام

تشهد الحرب في القرن الواحد والعشرين، أكثر فأكثر، ظاهرة حرب لا متماثلة بين مقاتلي قوى عسكرية غير متكافئة. هذا الأمر متمثل، على سبيل المثال، في حرب المجاهدين ضد الإحتلال السوفياتي لأفغانستان، حرب "الفارك" التي تشن ضد الحكومة في كولومبيا، وتمرد حزب الله ضد إحتلال إسرائيل لجنوب لبنان لأكثر من 20 عاماً.
سأقدم، وأقيِّم، وأحلل في هذه الورقة أسباب ونتائج حرب 2006 بين قوات الدفاع الإسرائيلية وجماعة حزب الله الإسلامية اللبنانية. وسأبدأ بتقديم مختصر لمنطق أمين عام حزب الله السيد حسن نصر الله وتبريره لهدف مجموعته ورؤيتها خلال تلك الحرب. ومن ثم سأنتقل لإعطاء تحليل محلي، إقليمي، وعالمي لأسباب و نتائج حرب جيش الدفاع الإسرائيلي – حزب الله. وسيتبع ذلك قراءة دقيقة لكتاب بقلم الشيخ نعيم قاسم الذي يشرح فيه وجهة نظره حول إيديولوجية حزب الله وأدواره الإجتماعية، السياسية والإقتصادية؛ رؤاه للإسلام وكيفية تشكيلها لأنشطة حزب الله الكاملة، سواء داخل لبنان أم على المستويين الإقليمي والعالمي.

نصر الله وحرب صيف 2006

في مؤتمر صحفي كان قد دعا إليه في 12 تموز 2006، فصَّل السيد حسن نصر الله أهداف وغايات عملية "الوعد الصادق" ضد إسرائيل. فالوعد كان القيام بتحرير أعضاء الحزب في السجون الإسرائيلية. وكان حزب الله يخطط لهذا الهجوم منذ العام 2000 عندما أُجبر الجنود الإسرائيليون على الخروج من جنوب لبنان.
في هذا الخطاب وفي تصريحات أخرى له، حاول نصر الله إيصال شعور من الهدوء والثقة بالنفس. فرئيس حزب الله لم يأخذ بالإعتبار إمكانية حصول عملية إنتقام إسرائيلية كبرى لأجل قتل وخطف جنودها على الحدود الإسرائيلية – اللبنانية. وذكر نصر الله جهوداً بُذلت لوقف إطلاق النار " دعا لها الإسرائيليون". لقد رفض تلك المناشدات وصرَّح عن "جهوزية مجموعته للمواجهة فوق ما يمكن للعدو أن يتصور".
بعد ساعات قليلة من إختراق عناصر حزب الله الخطوط الإسرائيلية لخطف ثلاث جنود إسرائيليين وقتل آخرين، حاول نصر الله التقليل من أهمية الحدث. إذ تحدث عن عن فوضى وضعف في صفوف

الإسرائيليين،" الصهاينة والشيطان الأميركي الأكبر". وبجمعه هذه القوى معاً، أراد نصر الله التأكيد على قوة الإئتلاف الذي كان يواجهه مع قواته في الحرب.

وقال نصر الله مستذكراً بأنه في تشرين الأول 2000 تم خطف وقتل ثلاثة جنود إسرائيليين. أما ردة الفعل الإسرائيلية فكانت محدودة بأعمال إنتقامية موضعية ضد مواقع لحزب الله. وفي ضوء ردة الفعل تلك، لم يتوقع نصر الله إنتقاماً إسرائيلياً على مستوى كبير. " عادة يقول الإسرائيليون لا في البداية ومن ثم نعم. ففي غضون أسبوع أو عام سوف يدعونا الإسرائيليون للتفاوض في النهاية."
كما أن حرب تموز – آب ضد إسرائيل تم تعريفها على أنها " نصر إلهي". فبالنسبة لنصر الله كان هذا النصر "الإنتصار التاريخي الأول في النضال ضد العدو الصهيوني". لقد حدث إنتصار حزب الله بالرغم من "عدم التوازن في القوى على الأرض" وبرغم حقيقة تخلي معظم القادة العرب والمسلمين، والعالم الى حد كبير، عن المجموعة الإسلامية عند خوضها الحرب التي أذلت العدو وأذهلت العالم.

إن فلسفة حزب الله العسكرية تدور حول مفهوم " المقاومة الإسلامية" المبني على قاعدة حرب العصابات. فالمجموعة الإسلامية تأخذ في الإعتبار أن يكون لمقاتليها دور عسكري ومدني. فهؤلاء المقاتلون يعيشون كمدنيين وسط السكان عموماً، لكنهم جزء من إستراتيجية عسكرية. هذه "الإستراتيجية الدفاعية"، كما يحددها حزب الله، مبنية على رد إنتقامي فوري تجاه أي هجوم إسرائيلي ضد مقاتلي حزب الله المختبئين وسط السكان المدنيين.
وتعتبر المجموعة الإسلامية الشيعية اللبنانية بأن مقاتليها مندمجون بالكامل بالسكان المدنيين خلال زمن السلم. أما في زمن الحرب فيصبح مقاتلو حزب الله قوة عسكرية منضبطة وجيدة التدريب والتنسيق. هذا التنسيق يُحافظ عليه بدعم من السكان المدنيين وكل ذلك يتم تنفيذه بشكل مستقل عن الجيش اللبناني أو الحكومة. فحزب الله، كمنظمة التحرير الفلسطينية سابقاً، أسست نفسه كدولة ضمن دولة. إنه منظمة عسكرية وسياسية تتخطى الحدود القومية يتلقى التوجيهات من قوى خارجية كإيران وسوريا.
ولا يثق رئيس حزب الله بالهيئات والقوانين الدولية. "على خلاف الكثيرين في وطننا، لم أؤمن مطلقاً بشيئ يدعى المجتمع الدولي". (من خطاب له في 14 تموز 2006). فنصر الله يؤمن بأن على جماعته أن تأخذ حقها بيديها كي تحرر الأرض المحتلة في جنوب لبنان وتحرر المعتقلين في السجون الإسرائيلية.
فبالنسبة لحزب الله وقائده، فإن عالم اليوم متسم ، بسبب العولمة (" المتوحشة والإمبريالية") بالإستغلال والتوزيع غير العادل للثروة وذلك بفضل بلدان الشمال المستغلة لشعوب الجنوب الفقيرة والمتخلفة.
وقد شهد عام 2006 "موطن الأرز" يدخل، مرة أخرى، مرحلة مركزية في الدوامة الشرق أوسطية. وليست هذه المرة الأولى التي كان فيها هذا البلد الشرق أوسطي الصغير مستخدماً كساحة قتال ملائمة لفاعلين إقليميين وعالميين.

الخلفيات المؤدية الى حرب لبنان 2006

هناك عوامل عديدة تفسر الأحداث التي أدت الى حرب صيف 2006 بين قوات الدفاع الإسرائيلية وحزب الله:

1. الو ضع الداخلي في لبنان عقب إغتيال رئيس الوزراء الأسبق رفيق الحريري؛

2. بزوغ إيران كلاعب رئيس في الشرق الأوسط عقب الحرب الأميركية في العراق؛

3. دور سوريا، التي لم تتقبل مطلقاً طردها من لبنان في ربيع 2005؛

4. الهاجس الإسرائيلي بخصوص الوضع الفلسطيني؛

5. عجز الإدارة الأميركية عن تنفيذ " الحرب العالمية على الإرهاب" والأوضاع غير القابلة للسيطرة في كل من العراق وأفغانستان.

فمنذ نهاية الحرب الأهلية في لبنان (1975 – 1989) دخل البلد في فترة إعادة إعمار مدهشة كانت برعاية رئيس الوزراء الراحل الحريري. وبفضل علاقاته وصداقاته العالمية، أعاد الحريري للبنان الإحترام الذي فقده والدور الذي كان لديه. أما العائق فكان تركيزه على إعادة الإعمار المادي على حساب التسوية والإصلاح بين اللبنانيين.
فالتسوية، بالواقع، لم تأخذ حيِّزها حقاً بين المجتمعات اللبنانية المختلفة. فالمسيحيون، تحديداً، كانوا مجروحين بسبب شعورهم بالهزيمة والخيانة في حين أن السنة والشيعة نالوا سيطرة أكبر على أدوات السلطة في البلاد. وعلى خلاف جنوب أفريقيا وبعض بلدان أميركا اللاتينية، لم يكن هناك مطلقاً من تفويض تسوية وحقيقي بما يتعلق بـ "تنظيف الماضي" في لبنان.
أما الصدع الرئيس الآخر في هذا السيناريو فهو دور ونفوذ حزب الله المتزايد أبداً في لبنان. فحزب الله، الذي نشأ عقب الغزو الإسرائيلي للبنان عان 1982، أصبح عنصراً مركزياً رئيساً في المقاومة ضد الإحتلال. وقد نجحت قيادة الحزب، بفضل مساعدة سوريا وحزب الله، بخلق شبكة مؤسسات كبرى تلبية للحاجات الإجتماعية والإنسانية المختلفة لسكان الجنوب.
لقد أصبح حزب الله، وغالبيته من اللبنانيين الشيعة، قوة إجتماعية وعسكرية ذات شأن في جنوب لبنان. أما الدعوات لإرسال الجيش اللبناني الى الحدود مع إسرائيل فكانت تواجه دوماً بالمقاومة. وتثبت حرب صيف 2006 بين إسرائيل وحزب الله مدى خطأ ذلك. وهذا هو السبب الذي دعا حكومة لبنان، بعد شهر واحد تقريباً من بدء الحملة الإسرائيلية، الى عرض إرسال 15000 جندي لبناني الى الحدود.

عقب إغتيال رئيس الوزراء الأسق رفيق الحريري (في شباط 2005)، تم تبني قرار مجلس الأمن الدولي رقم 1559 الداعي الى خروج جميع القوات الأجنبية من لبنان (في هذه الحالة المعنية هي سوريا) وحل حزب الله كميليشيا. أما المنطق هنا فهو أن إسرائيل قد أنهت إحتلالها لجنوب لبنان وبأن مقاومة حزب الله قد أصبحت محل جدل، لكن ذلك لم يكن تفسير حزب الله. فبالنسبة للميليشيا الشيعية كانت إسرائيل لا تزال محتلة لمزارع شبعا (مساحة من الأرض تبلغ حوالي 20 – 25 كلم2 في جنوب لبنان) وهذا الأمر برر له الإحتفاظ بسلاحه.

إيران وسوريا: مخربيْن إقليمييْن؟

منذ الثورة الإسلامية في إيران في العام 1979، والسياسات الإقليمية في الشرق الأوسط تتغير. فآية الله الخميني أراد تصدير خط إسلامه الأصولي على إمتداد الشرق الأوسط، العالم الإسلامي، ولبنان بمجتمعه الشيعي الكبير الذي أصبح هدفاً مفضلاً لطروحات طهران.
وحَّد الغزو الأميركي للعراق في العام 2003 إيران كلاعب رئيس في المنطقة. فقوس النفوذ الشيعي ممتد الآن على طول المسافة من طهران الى البصرة، الى بيروت. وقد إستفاد النظام الإيراني من إنقسام العراق ليمد نفوذه وحضوره في جنوب العراق. في هذه الأثناء، حزب الله أداة ملائمة لسياسات إيران المشوِّشة والمعيقة ضد المصالح الأميركية في المنطقة.
أما اللاعب الرئيس الآخر فهي سوريا. فالنظام السوري لم يعترف رسمياً مطلقاً بلبنان ككيان ذي سيادة.أما الإثبات فكان واضحاً دوماً مع غياب السفارات الممثلة للبلدين في عاصمة كل منهما. وفي العام 1976، وبدعم أميركي وإسرائيلي، أرسل حافظ الأسد جنوده الى لبنان للمحافظة على حالة من التأزم المتحكم به. ووضعت سوريا الفئات اللبنانية المهيأة لذلك مقابل بعضها البعض للحفاظ على تفوقها. وبدعم واشنطن الضمني، دامت الهيمنة السورية على لبنان مدة ثلاثين سنة.

وقد تحدى رئيس الوزراء الراحل رفيق الحريري دور سوريا المبرِّز في لبنان. وقام بتشكيل لوبي شديد مع أصدقائه الأوروبيين والأميركيين لجعل الأمم المتحدة تتبنى قراراً يدعو الى إنسحاب الجيش السوري من لبنان وحل حزب الله. وفي ربيع عام 2005، وعقب إغتيال الحريري، أُجبرت سوريا على سحب جنودها خارج البلاد.

إسرائيل في المستنقع اللبناني: زائد التحول!

منذ تولي آرييل شارون السلطة في إسرائيل وعلى متداد فترة قيادته، أصبحت القضية الفلسطينية، وخاصة البعد الديمغرافي للصراع، الهاجس الأول له. وقرر شارون بناء جدار (أو "سياج فصل" بحسب التوصيف الإسرائيلي الرسمي) حول معظم أراضي الضفة الغربية. كما قرر تقويض علاقات حماس الإقليمية. ومنذ بداية الإنتفاضة الثانية (2001)، قامت المجموعات الإيرانية والموالية لسوريا كحماس وحزب الله بصياغة تحالف سياسي وعسكري وثيق. وقد أجبر إنتصار حماس في الإنتخابات التشريعية الفلسطينية في أوائل العام 2006، الإسرائيليين على التخلص من حماس وتقويض شرعيتها كسلطة منتخبة ديمقراطياً. إننا نواجه الآن إمكانية وجود قادة ضعاف يحاولون إيجاد تسوية لا يمكن الحصول عليها: إيهود أولمرت في إسرائيل، محمود عباس في فلسطين، وفؤاد السنيورة في لبنان. وهذا الأمر لا يُنبئ بخير بما يخص فرص سلام دائم في الشرق الأوسط.

الولايات المتحدة، أوروبا، وعرب أميركا

في الأشهر التي سبقت الحرب، كانت أهداف إدارة بوش المتعلقة بمكافحة الإرهاب وجلب الديمقراطية الى الشرق الأوسط تتخبط في حالة من الفوضى. ومع إستشعار قرار أميركي محتمل بتخفيض وجوده العسكري تدريجياً في العراق، وبسبب نفوذ إيران الصاعد في المنطقة، قرر رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت ضرب لبنان.وكانت الرؤية الأميركية – الإسرائيلية المشتركة تأسيس " شرق أوسط جديد". وهذا المفهوم خطير ومتناقض.

كان هناك حديث في أوساط المفكرين العرب عن التشابهات بين هذه السياسة الجديدة والأفكار المنسوبة الى بعض الدوائر الإسرائيلية والأميركية حول تقسيم المنطقة الى طوائف وأعراق: دولة شيعية في جنوب العراق؛ دولة كردية في شمال العراق؛ دولة سنية سفلية محمية من قبل مصر والعربية السعودية؛ كيانات علوية، سنية، ودرزية في سوريا؛ وأخيراً تقسيم لبنان الى محوطات (كانتونات) مسيحية، سنية، شيعية، ودرزية. أما الغاية من هذه " البلقنة" - بحسب هذه الدوائر- فستكون ضمان هيمنة إسرائيل كدولة يهودية في منطقة مقسمة طائفياً. وبالتأكيد هذه وصفة لكارثة وتنذر بإرهاب وحروب لا نهاية لها في الشرق الأوسط وحول العالم.
كانت حرب صيف 2006 بين حزب الله وقوات الدفاع الإسرائيلية نذيراً ببزوغ حقائق جديدة في الشرق الأوسط. أولاً، كانت الحرب في لبنان أطول مواجهة بين الجيش الإسرائيلي وميليشيا غير نظامية. وبالنتيجة، برز حزب الله كلاعب رئيس في الحياة السياسية اللبنانية والإقليمية المستقبلية. وثانياً، وبإستخدامها حزب الله كأداة إقليمية، برزت إيران كقوة كبرى، تحديداً كحامية للشيعة في الشرق الأوسط. علاوة على ذلك، ستكون إيران المحاور الحتمي بالنسبة للولايات المتحدة وبريطانيا بما يخص مستقبل العراق.
وكان على أوروبا والغرب إجتياز تحول كبير لإطار مفاهيم. فمفكري الغرب العرب قد تغيروا. فهؤلاء الموجودون في الشرق الأوسط الذين أرادوا جلب الديمقراطية والتحرر الى المنطقة هُزموا بسبب الحرب في لبنان. أما الغرب فسيكون عليهم تعلم التحدث مع إسلاميين وتقبل رؤية إسلامية أكثر راديكالية في المنطقة.

رابحون وخاسرون في حرب صيف 2006

إنتهت المواجهة مع تبني مجلس الأمن الدولي (11 آب) للقرار 1701. وفي هذا القرار شرع المجتمع الدولي بوضع المبادئ لحل دائم للأزمة. فالقرار الدولي 1701 دعا الى " وقف كامل للأعمال العدائية" بين حزب الله وإسرائيل وكرر " دعم المجتمع الدولي القوي للإحترام الكامل للخط الأزرق" (الفاصل بين لبنان وإسرائيل)؛ كما دعا القرار " للتنفيذ الكامل لبنود إتفاق الطائف ذات الصلة" (1989) – الذي وضع حداً للحرب الأهلية اللبنانية – ونزع سلاح "جميع المجموعات المسلحة في لبنان".
كما تضمن القرار 1701 إطلاق سراح الجنديْن الإسرائيلييْن المخطوفيْن والمعتقلين اللبنانيين، وترسيم الحدود، خاصة في منطقة مزارع شبعا. أخيراً، دعا القرار الى نشر 15000 جندي يُضافوا الى فريق اليونيفيل الموجود في جنوب لبنان. وقدمت فرنسا، إسبانيا وإيطاليا نصف هذا العدد من الجنود.
أما أكبر الخاسرين للحرب فشمل الحكومة الإسرائيلية، الشعب اللبناني (وصل التقييم الأولي للكلفة المباشرة للحرب الى 2,464 مليار دولار)، إدارة بوش و "حربها العالمية على الإرهاب" والحملة الأميركية لنشر الديمقراطية في الشرق الأوسط.
وبالنسبة لكثيرين من المراقبين الأميركيين، الأوروبيين، والشرق أوسطيين، كان أمين عام حزب الله السيد حسن نصر الله الرابح الرئيس. إذ أصبح نصر الله بطلاً في العالم العربي بسبب نجاحه في مواجهة أعتى وأقوى جيش في الشرق الأوسط لأكثر من 4 أسابيع.
كانت حرب صيف 2006 دعوة يقظة كبرى بالنسبة للجيش والحكومة الإسرائيلية. فسياسة إيهود أولمرت بالإنفصال الأحادي عن غزة والضفة الغربية نالت ضربة قوية وفقدت مصداقيتها لدى الرأي العام

الإسرائيلي. فإسرائيل لن تتقبل الوضع القائم الحالي وستبذل جهدها لإلحاق هزيمة كبرى بعدوها الشيعي المر في لبنان.

ما بعد حرب لبنان: توجهات وتطلعات

سيكون على لبنان بناء نفسه مرة أخرى. إذ يجب أن يكون هنك ضمانة صارمة بأن لا يتم إستخدام حدوده الجنوبية مطلقاً كمنصة إطلاق ضد إسرائيل. وهذا يعني المقدمة لقوة حفظ سلام دولية كبيرة أو توسيع تفويض الجيش الأممي الحالي (اليونيفيل)، بوضعه تحت الفصل السابع للأمم المتحدة.

أدت حرب 2006 الى واقع جديد في المنطقة. فإيران نجحت في المحافظة على نفوذها في كل من العراق ولبنان وستبذل قصارى جهدها للحفاظ على برنامج أسلحتها النووية. هذه العوامل ستكون ورقة إيران المهمة للفوز في مفاوضات أو مواجهة محتملة مع الولايات المتحدة.

قد تحدث عملية إعادة رسم محتملة لنفوذ إقليمي، مع السماح لإيران بحق الهيمنة على العراق، خاصة على منطقته ذات الغالبية الشيعية. أما إسرائيل فيُسمح لها بالحفاظ على سيطرتها على ما تبقى من الضفة الغربية، في حين يمكن، في هذه الأثناء، إدخال مصر والأردن الى مشاركة من نوع ما في هذه السيادة المشتركة على المنطقة.أما النظام في سوريا فسيستمر، لكن بأجنحة مقصوصة ونوع من النفوذ غير المباشر في لبنان.
أما بما يتعلق بالتعقيدات بالنسبة للولايات المحدة و"الحرب العالمية على الإرهاب" فكانت توفر عدد أكبر من المجندين للقاعدة ورفيقاتها، خاصة عقب الكوارث الحاصلة في لبنان والعراق. هذا هو السبب الذي كانت لأجله الحاجة ملحة بالنسبة للولايات المتحدة والمجتمع الدولي لإنهاء حرب إسرائيل – حزب الله في لبنان ومساعدة البلد للبدء بإعادة الإعمار. فلبنان بحاجة ماسة لحكومة مركزية قوية مع جيش جيد التدريب. أما التحدي الكبير الآن فهو كيفية خلق حل دائم يرضي جميع الفئات.

لا يزال على اللبنانيين التوصل الى إتفاق نهائي حول ثلاث قضايا أساسية:

1. إمكانية إستمرار إتفاق الطائف وما إذا كان لا يزال من الممكن تطبيقه بظل الوضع الحالي، خاصة في ضوء المتغيرات التي جلبتها حرب 2006؛

2. دور لبنان الذي عليه أن يلعبه في الصراع الإسرائيلي – الفلسطيني؛

3. ما إذا كان على لبنان تنفيذ سياسات إقتصادية تعكس وضع حرب أو سلام.

كان هناك فترة من عدم الإستقرار الى حين إنتخاب رئيس جديد في تشرين الأول. فبصفته ساحة خلفية للتوترات الإقليمية والعالمية، كان على لبنان إنتظار نتيجة الأحداث التالية:

1. نتائج المحادثات الإيرانية – السعودية؛

2. نضال سوريا للخروج من عزلتها ونوعية الدور الذي ستلعبه دمشق في لبنان، العراق، و فلسطين؛

3. قيادة إسرائيلية أقوى؛

4. نتائج الجدل الدائر في الولايات المتحدة حول المسار الواجب إتباعه مع النظام الإيراني: الديبلوماسية أو العمل العسكري.

أساس نشأة حزب الله وأصوله

كما صرحنا سابقاً، فإن إحدى أهداف هذه الدراسة هي إلقاء نظرة على فلسفة حزب الله العسكرية والدينية التي توجه حزب الله. ولإستخلاص رؤى وأهداف المجموعة الإسلامية اللبنانية، فقد إعتمدت بشكل مكثف على كتاب إبداعي بقلم الشيخ نعيم قاسم، وهو عضو مؤسس لحزب الله ونائب لأمينه العام منذ العام 1991.

شهد لبنان في أوائل الثمانينات بداية حركة دينية جديدة عملت على تجديد قوة مبادئ الإسلام الأساسية في مجالي المصطلحات الدينية والسياسية. أما القادة الدينيون الشيعة الثلاث فكانوا: الإمام موسى الصدر (الذي أسس "حركة المحرومين" وكذلك " صفوف المقاومة اللبنانية – أمل")، الشيخ محمد مهدي شمس الدين (الذي كرَّس معظم حياته للعمل الفكري بالإضافة الى قيادة المجتمع الشيعي) والسيد محمد حسين فضل الله، المرشد الروحي لحزب الله. وكان لكل واحد منهم مقاربته، منطقه العملاني، وخطة عمله الخاصة، لكنهم تقاسموا جميعاً الإيمان بضرورة إطلاق حملة تغيير بظروف حياة اللبنانيين الشيعة السائدة.

وخلال السنوات الأولى لحزب الله، كان إسم السيد محمد حسين فضل الله مرتبطاً بشكل وثيق بالحزب. لقد كان رمزاً لمفاهيم إيديولوجية عديدة داخل الحزب، كما كان مرشداً لحزب الله من خلال رؤية ناضجة عن الإسلام والحركة الإسلامية، وداعماً لآية الله الخميني، قائد الثورة الإسلامية في إيران.

ورغم أنه غالباً ما كان يُعتبر من قبل الإعلام المحلي والدولي والمراقبين السياسيين على أنه القائد الروحي لحزب الله، فقد رفض السيد فضل الله دوماً أية مشاركة في نشاط حزب الله المنظم وإختار البقاء رجلاً دينياً داعماً لأولئك الموجهين للحزب الذين إعتبرهم منسجمين مع رؤاه. أما الإسلاميون اللبنانيون فقد قسموا إصطفافاتهم بين حركة أمل (الحركة السياسية الوحيدة في ذلك الحين)، اللجان الإسلامية المختلفة، الفئة المبشرة، والمستقلين.
في العام 1979، حازت الثورة الإيرانية بقيادة آية الله روح الله الخميني على النصر، التي جاءت بالترادف مع حاجة متصاعدة وملحة لتجديد سياسي في لبنان. وما أن مُنح آية الله الاخميني قيادة السلطة الدينية الأولى ضمن المجمع الشيعي (حيث "الحكم التفسيري" – الإجتهاد – ممكن وحيث مطلوب من المواضيع

إتباع التفسير الديني لأفقه رجال الدين الأحياء) كما برز الهاجس بخصوص الحاجة لبناء تنظيم إسلامي موحد.
وبذلك بدأ عدد من ممثلي المجموعات الإسلامية الرئيسة نقاشات حول فهمهم لنشاط إسلامي في لبنان. أما نتائج هذه النقاشات فقد لُخصت في وثيقة نهائية، " بيان التسعة"، الذي أعلن الأهداف الثلاثة التالية:

1. الإسلام برنامج شامل، تام ، ومناسب لحياة أفضل؛
2. المقاومة ضد الإحتلال الإسرائيلي يتطلب إيجاد الجهاد (الحرب المقدسة)؛
3. القيادة الشرعية هي تلك التي لولاية الفقيه الذي يعتبر خليفة النبي والأئمة.

هذه الوثيقة قدمت الى آية الله الخميني، الذي منحها موافقته، مانحاً بذلك نفسه حق الوصاية بصفته ولياً للفقيه. بعدها تبنت مجموعات إسلامية مختلفة البيان مذوبة بذلك تنظيماتها القائمة لصالح إطار العمل الجديد هذا، الذي أصبح يُعرف لاحقاً بحزب الله.

حصلت كل تلك التطورات في زمن التكاتف الإيراني مع لبنان وسوريا. فسوريا وافقت على مرور الحرس الثوري الإيراني الى داخل لبنان، وعلى معسكرات تدريب تم تأسيسها في سهل البقاع الغربي.

وبذلك تكون الأهداف الرئيسة الثلاث الممثلة للركائز الأساسية التي تأسس عليها حزب الله هي:

1. الإيمان بالإسلام؛
2. الجهاد؛
3. سلطة ولاية الفقيه.

الإيمان بالإسلام

يعتبر حزب الله الإسلام إيماناً راسخاً كما يعتبره رمزاً للقانون. فبصفته رمزاً للقانون، تعتبر الشريعة موصوفة بوضوح في القرآن وفي أحاديث النبي الشريفة (السنة) وبأنها تغطي كل حاجات البشر.
في مقابل أحكام الشريعة الدائمة، يسمح الشيعة بهامش واسع للتكيف مع التغير، والحفاظ على السير قدماً في أي زمان ومكان. فالإسلام، على سبيل المثال، وضع خطوطاً إرشادية للحاكم أو القائد " الجيد" في الوقت الذي ترك له مسألة إختيار إطار عمل الحكومة. وبذلك، فإن السؤال عن تشكيل حكومة يُترك خالياً من القوانين الصارمة كما أن إنتخاب رئيس يمكن أن يكون من خلال تصويت شعبي مباشر أو من خلال برلمان.
ورغم أن الشريعة تبدو، على المستوى الفكري، بانها تدعو الى تأسيس دولة إسلامية، فإن حزب الله يعتبربأن دولة كهذه، على المستوى العملي، يجب أن تكون مبنية على خيار عام حر. فالحزب يطمح لأن يكون في موقع يوحد فيه مدارس الفكر الإسلامي المختلفة، مشروع فشل فيه فقهاء دينيون مختلفون على مدى مئات السنين، لكن الشيخ قاسم يعتبر عملية البحث لإيجاد أرضية مشتركة على المستوى السياسي أمر

أكثر أهمية. " إن المتطلب الأساسي بالنسبة لنا هو أن نكون معاً في مواجهة التحديات وليس هدر الوقت في محاولة تحديد جنس الملائكة في الوقت الذي يتم فيه سرقة أرضنا ويكون فيه مستقبلنا مهدد بالخطر بظل الهيمنة العالمية".

الجهاد

للجهاد (أو الحرب المقدسة) جذوره في الفعل " الكفاح"، أو " النضال". إنه يشير الى السعي والقيام بكل جهد ممكن للقتال ضد العدو. إذ من المعتبر أن الجهاد يحمل في معناه تأثيراً كبيراً على مسار حياة المسلم ويُنظر إليه على أنه جزء لا يتجزأ من إيمان الفرد الحقيقي.
" لقد عبر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن هذا المعنى عند إستقباله جماعة من المسلمين بعد عودته من الحرب تماماً: *أهلاً بكم في جيش أنجز ذلك الجهاد الأصغر (المعركة) ولا يزال الجهاد الأكبر ينتظره.* وعندما سُئل عن ذلك التحدي الأكبر، أجاب النبي : *جهاد النفس.* وبذلك يُعتبر الجهاد واجب على جميع المسلمين " لرفض الظلم ومواجهته، والكفاح بأرواحهم وعقولهم نحو إنتصار الفضيلة، العدالة، الحق، وحقوق الإنسان"، والتي وُعدوا بمكافأتهم عليها يوم القيامة.

أما الجهاد العسكري، بحسب فهم رجال الدين، فيأخذ شكلين: 1) جهاد على الأرض، والذي هو مواجهة بين مسلمين وآخرين، والدخول الى أراضي الآخرين لأسباب غير مرتبطة بإصلاح أرض أو رد عدوان. هذا الشكل من الجهاد لا يعتبر قابلاً للتطبيق في يومنا الحاضر. 2) الجهاد الدفاعي، ويعني دفاع المسلمين عن أرضهم، شعبهم، أو أنفسهم عند مواجهة عدوان أو إحتلال. وها الأخير لا يعتبر مشروعاً فحسب، بل واجب على جميع المسلمين الحقيقيين. أما دور المرأة في هذا السياق فهو تقديم الدعم والمساعدة بالتجنيد. وليس هناك من أمر ديني، بهذا الخصوص، يتطلب من النساء هذا الشكل من التضحية مع وجود عدد كاف من الرجال.
أما فيما يخص مسألة الشهادة فيقول الشيخ قاسم في كتابه: " إن كل ما يقدر العدو عليه هو زرع الخوف من الموت فينا. عندما نوقف هذا الخوف، فإننا نسلم بقوة الموت الذي يتهددنا به العدو عبثاً... فالشهادة تسد فجوة هامة في عدم توازن القوى. إن محاولة إلحاق الهزيمة بالعدو بأقل قدر ممكن من سفك الدماء أمر واجب."

سلطة ولي الفقيه

يؤمن المسلمون بأن النبي هو الرسول، حامل عقيدة الشريعة المقدسة، والذي أُوحي إليه الإشراف على تنفيذها وتحديد طريق الأمة نحو تحقيق هذا الهدف. ويأتي بعد النبي، في سلم التفوق المرجعي، الأئمة المعصومون، بدءاً بأمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب وإنتهاء بالإمام المهدي.
أما دور الأئمة فهو تفسير وتوضيح جوانب الرسالة المختلفة ومراقبة تنفيذها الصحيح. وفي غياب تفسيرات كهذه مقدمة من قبل الأئمة، يكون الفقهاء ورجال الدين في موقع المسؤولية مع توضيح ما يقع بظل نطاق الواجب وما يستثنيه، ما هو مقبول وما هو ممنوع.

أما التنفيذ فمن المفهوم أنه يأخذ شكلين: شكل فردي ومرتبط بأشكال العبادة، معاملة الآخرين وكل ما هو متصل بالحياة الشخصية واليومية. أما الشكل الآخر فعام ووثيق الصلة بالأمة ككل، بمصالحها، بحربها، سلمها، وإتجاهها الكامل.

ويعتبر الشيعة بأنه من خلال رعاية ووصاية ولي الفقيه، فقط، يمكن الحفاظ على الإسلام وتنفيذه، بما أنه هو المسؤول عن تحديد الطريق لجمع الأمة معاً. فهو الذي يملك السلطة لتقرير قضايا السلم والحرب. وهو أيضاً الوصي على ثروات الأمة المجموعة من خلال الخمس والزكاة ومن مصادر أخرى. وهو يضع الإرشادات والتوجيهات لأية دولة إسلامية في بدايتها، مرشداً إياها نحوالطاعة وفق فلسفة التشريع العقائدي والمحافظة على مصالح ناخبيها بما يتوافق مع الإسلام.

بعد تنفيذ الإسلام من قبل ولي الفقيه، فإن مهمات " الإدارة والإشراف على التفاصيل والجزئيات؛ تنفيذ الإجراءات؛ العمل الإجتماعي والثقافي؛ الجهاد ضد الغزاة الإسرائيليين" تعتبر من مسؤوليات قيادة حزب الله. إن سلطة من هذا القبيل منعكسة في الإستقلال الحقيقي على المستوى العملاني، ولا تفترض ضرورة الإشراف المباشر أو اليومي من قبل ولي الفقيه.

العلاقة مع إيران

أما بخصوص علاقاته مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية، فإن الشيخ قاسم يقول في كتابه بأن حزب الله يرى، منذ إنشائه، إمكانية تحقيق أهدافه وطموحاته من خلال التعزيز والمساندة المقدمان من قبل الجمهورية. ويرى قاسم أسباباً عديدة تقف خلف نجاح العلاقة بين إيران وحزب الله والذي يعتبر أن أهم ما فيها الأمور التالية: 1) إطار العمل المشترك لمشروعية القيادة الدولية (بما أن كل من إيران وحزب الله يؤمنان بنطاق سلطة ولي الفقيه، وبأن الإمام الخميني كان ذلك القائد)؛ 2) تناغم وتآلف على المستوى النظري (رغم أن التطبيق التفصيلي للتوجيهات العامة خاضع لصفات ومميزات محددة لكل بلد)؛ 3) رؤى سياسية مشتركة(وبشكل خاص تلك المتعلقة بدعم جميع حركات التحرر، خاصة تلك الهادفة الى مقاومة الإحتلال الإسرائيلي).

ويشدد الشيخ قاسم على القول بأن العلاقة بين إيران وحزب الله ليست علاقة من النوع الذي يكون فيها فريق ضعيف مكرَّس لإرادة فريق أقوى منه،وإنما علاقة أهداف كل طرف فيها متحققة من خلال العمل المستقل.

العلاقة مع سوريا

على إمتداد حكم الرئيس السوري الراحل حافظ الأسد، تبنت سوريا سياسة إعاقة مشاريع إسرائيل، تعزيز التكاتف العربي، دعم المقاومة ضد الإحتلال والتعاون مع جميع الحلفاء بإتجاه هذه الغاية.
بعد الغزو الإسرائيلي للبنان عام 1982، أعلنت إيران دعمها لسوريا وجهوزيتها لتنفيذ أوامر الإمام الخميني وإرسال حرسها الثوري الإسلامي لدعم لبنان في مواجهته للإحتلال. وقد وافق الرئيس الأسد على

هذا الأمر، ومر الحرس الثوري عبر سوريا الى لبنان لتدريب الشباب الذين شكلوا حينها حزب الله وقاتلوا الإحتلال الإسرائيلي. وبذلك، كانت العلاقة بين حزب الله وسوريا مقيدة بداية بالتنسيق حول قضايا الأمة، تسهيل حركة الناشطين وسلاحهم ومعالجة أية مشاكل تنشأ. ولم تمتد العلاقة الى علاقة سياسية.
أما أول نقاش إيديولوجي وسياسي بين حزب الله وسوريا، والذي حصل بعد صدامات بين ميليشيا أمل وحزب الله في حزيران 1988، فقد قاد القوات السورية الى التسلل الى ضواحي بيروت الجنوبية تحت علم الفصل بين الفريقين المتقاتلين وإعادة ترسيخ الأمن. وفي إجتماع بناء على طلب قيادة حزب الله، أعاد الرئيس الأسد التأكيد لقادة الحزب على أن نشر قواته في المنطقة لم يكن إلا لأسباب أمنية وبأنه ليس هناك من نية بوقوف الجيش السوري الى جانب أمل، كما تخوف حزب الله. هذا اللقاء الأول بين سوريا وقادة حزب الله أرسى الأسس لنقاشات سياسية مستمرة حول قضايا مشتركة، متصلة بشكل رئيس بالصراع مع إسرائيل.

الولايات المتحدة، أوروبا والأمم المتحدة

الولايات المتحدة

مع سقوط الإتحاد السوفياتي في العام 1989، أصبحت الولايات المتحدة القوة الأكثر تأثيراً ونفوذاً في المنطقة وقامت، تدريجياً، بإزاحة فرنسا وبريطانيا عن مكانتيهما كدولتين إستعماريتين، فارضة سياساتها في كل المناطق.
ويرى الشيخ قاسم بأن المشكلة المعيقة لأية علاقة أو حوار مع الولايات المتحدة منذ ذلك الحين هي في "التفوق السياسي لهذه القوة العالمية الواحدة". علاوة على ذلك، قامت الولايات المتحدة بتصنيف المقاومة الإسلامية في لبنان ووضعها في خانة الإرهاب، معززة بذلك من حالة عدم المساواة والتكافؤ التي تتسم بها العلاقات بين حزب الله والولايات المتحدة. ويشدد الشيخ قاسم على القول بأن الولايات المتحدة حرضت أيضاً على هجوم داخلي في لبنان في محاولة لإرباك وإشغال المقاومة وضمان أن تلعب المنطقة المحتلة في لبنان دوراً أساسياً في أية ضمانات أمنية أو إتفاقيات سياسية يتم توقيعها مع لبنان أو سوريا.
ويقول الشيخ قاسم،حتى وقت قريب، بأن حزب الله يعتبر دعوات بعض مسؤولي الكونغرس الأميركي لإجراء إجتماعات وحوارات أمراً عبثياً، ولذلك فهو رفضها برغم الطلبات المتتالية المنقولة من خلال مسؤولين لبنانيين وغير لبنانيين. "إن الولايات المتحدة لا تتخذ أية خطوة مفصلة أو تقوم بأي عمل مهما يكن هذا العمل إلا إذا كان يغذي مباشرة سياسة دعم إسرائيل المرسومة سلفاً "، يقول الشيخ قاسم محاججاً.

الغرب الاوروبي

برغم أن الفرنسيين والبريطانيين حاولوا الإستفادة من ماضيهم الإستعماري في الشرق لأوسط بالمحافظة على أدوارهم هناك، فقد إنحدر النفوذ الأوروبي في المنطقة بثبات على مدى العقدين الماضيين مع صعود الولايات المتحدة كقوة عالمية أحادية. وعلى عكس علاقاته مع الولايات المتحدة، كان حزب الله قادراً على المحافظة على علاقاته مع أوروبا، وذلك يعود، الى حد كبير، الى أن الحزب لا يشعر بأن هناك أي تهديد بهجوم مباشر من جانب أوروبا.

فحزب الله يعتبر الدور الذي إختارت أوروبا تبنيه كمحفز لتلطيف الأحادية الأميركية ليمثل بذلك دوراً غربياً مختلفاً، على الرغم من إفتقار الدعم لحقوق الإنسان الذي تجلى واضحاً من قبل أوروبا بعد مجازر جنين وإنتهاكات إسرائيلية أخرى لحقوق الإنسان في الأراضي الفلسطينية المحتلة.
وبحسب ما يقول الشيخ قاسم، فإن حزب الله يعتبر بأن القنوات يجب أن تظل مفتوحة، بسبب المصالح المتبادلة في مجال تطوير العلاقات بين الحزب وأوروبا (حتى لو كان حزب الله حذراً نوعاً ما بما يخص سياسة بريطانيا المؤيدة لأميركا).

الأمم المتحدة ومجلس الأمن

أما بخصوص العلاقات مع الأمم المتحدة ومجلس الأمن، فيقول الشيخ قاسم في كتابه بان حزب الله لا يتساءل عن أهمية وجود منتدى دولي لحل النزاعات الدولية ويعتبر بأن القضايا الدولية بحاجة الى منسِّق على هذا المستوى.
إن حزب الله، في كل الأحوال، ينتقد سلطة الفيتو الممنوحة لأعضاء مجلس الأمن الخمسة الدائمين. وبذلك، وككثير من أعضاء الأمم المتحدة اليوم، يلح حزب الله على " إعادة درس حقوق بلدان معينة بإستخدام سلطة الفيتو" وكذلك " إستبدال آلية صنع القرار هذه بأخرى تخدم عودة العدالة الدولية الى الوجود."

تقييم حزب الله للحرب

في مقابلة واسعة مع صحيفة السفير اللبنانية (5 أيلول، 2006) قدم السيد حسن نصر الله، أمين عام حزب الله، تقييمه الخاص لحرب تموز 2006. بدأ نصر الله بالتعبير عن قلقه وإنزعاجه من أن تضيع نتائج " إنتصار حزبه الإلهي" في الجدل البيزنطي المتلوي في الحياة السياسية اللبنانية. فالحرب لم تنل دعماً إجماعياً في أوساط اللبنانيين. فبعض المسؤولين في الحكومة اللبنانية، وزعماء طوائف آخرين، عبَّروا عن معارضتهم الكاملة لقرار حزب الله بخطف الجنديْن الإسرائيليْن وشن حرب شاملة ضد عدو قوي عسكرياً. لكن بالرغم من ذلك كان هناك إنقسامات ضمن المجتمع الشيعي، إذ وُضعوا جانباً للإحتشاد خلف جهود حرب حزب الله.

دافع نصر الله عن أعماله بتصريحه بأن عملية خطف الجنديين كان محاولة من قبل حزب الله لإستباق خطة إسرائيلية لمهاجمة لبنان في تشرين أول 2006. " لقد جعلناهم يفقدون عنصر المفاجأة،" قال نصر الله مفسراً. " لقد فرضنا عليهم توقيتاً غير الذي كان محضراً بدقة. لقد كنا مستعدين ومتحركين، وهم لم يكونوا."

إستنتاجات وتوصيات

إن الحرب بين قوات الدفاع الإسرائيلية وحزب الله، الميليشيا اللبنانية الشيعية، هي نذير لحروب مستقبلية في الشرق الأوسط وأجزاء أخرى من العالم. وعلى خلاف الحرب التقليدية، شهدت هذه الحرب خوض أقوى جيش في الشرق الأوسط معركة ضد حركة تمرد مدعومة شعبياً. أما ما يميِّز هذه الحرب فهو سؤال عن المنطق الذي تصاعد حول إستخدام حرب تقليدية ضد مجموعة تمرد تعتمد بشدة على حرب العصابات

والمعتقدات الدينية. أما البعد الآخر الذي يسترعي الإهتمام فهو تعقيداتها الإقليمية، خاصة بما يتعلق بالعامل الإيراني.

منذ بدايات الثورة الإيرانية في العام 1979، ووصول آية الله الخميني الى السلطة، أُضيف عامل جديد لمفهوم الحرب العسكرية. إذ إستخدم الإيرانيون تكتيكات حرب عصابات تقليدية لنشر تعاليمهم الإسلامية ومد نفوذهم، في الوقت الذي ميَّز الغزو الإسرائيلي للبنان عام 1982 بداية حقبة جديدة في مجال الأعمال العدائية الإيرانية – الإسرائيلية من خلال بدائل.

إن ما يميِّز حزب الله عن الجيش النظامي هو تلاعبه بالواقع المتشظي في لبنان لصالحه. فلمدة طويلة من الزمن كان جنوب لبنان متروكاً لقيادة سياسيين إقطاعيين الذين لم يهتموا كثيراً بمصير السكان المحليين. وأعطى ظهور الإمام موسى الصدر (رجل دين لبناني المولد عاش معظم حياته في إيران) المجتمع الشيعي في لبنان أملاً بأن وضعهم، كمجتمع منسي ومسحوق، سوف يتغير.

لعب حزب الله على وتر ضعف الحكومة المركزية في بيروت وعلى الجفاء والعزلة التي خلقتها منظمة التحرير الفلسطينية على إمتداد سنوات عملياتها العسكرية ضد إسرائيل ، ليصبح فاعلاً عسكرياً وسياسياً رئيساً في الحياة السياسية اللبنانية أما السؤال فهو كيفية التعامل مع مجموعة إرهابية لها ظهير شعبي. كيف لك أن تفطم الشيعة في لبنان عن تأثير حزب الله؟ هذا سؤال جوهري لا يمكن إلا لحكومة مركزية قوية في لبنان أن تجيب عليه.

إننا نواجه اليوم وضعاً مثيراً جداً للإهتمام في لبنان. فمن جهة هناك القوات المسلحة النظامية اللبنانية التي شنت حرباً ضد منظمة فتح الإسلام، وهي مجموعة إرهابية صغيرة. وقد دامت المعارك التي شُنت في ربيع 2007 من قبل الجيش اللبناني ضد هذه المجموعة في طرابلس (شمالي لبنان) حوالي 4 أشهر وميزت أسوأ فترة من العنف الداخلي في لبنان منذ نهاية الحرب الأهلية (1975 – 1990). من جهة أخرى، هناك حضور حزب الله، الذي يمتلك الآن قدرات عسكرية وسياسية أيضاً. وعلى خلاف فتح الإسلام، فإن حزب الله مسلح بشدة، جيد التدريب، ومدعوم من قبل قوتين إقليميتين : إيران وسوريا.

أما من المنظور العسكري، فقد قادت حرب تموز 2006 الى إعادة تفكير كبرى في في عملية صنع الحرب الإسرائيلية. إذ أن إحدى العوائق الكبرى للعملية الإسرائيلية في لبنان كان فشلها في تحديد مواقع حزب الله العسكرية وتحركاته. أما التقصير الآخر فكان الإفتقار الى التحضير العسكري.

الدروس التي ينبغي تعلمها تتضمن:

1. لا يمكنك أن تهزم مجموعة تمرد تمتلك سنداً شعبياً.

2. لعزل حزب الله عليك تقوية الحكومة المركزية في لبنان وجلب قادة شيعة معتدلين هم حالياً مقصيين عن العملية السياسية. فاليوم، يتحدث كل من حزب الله وأمل، المجموعتان المدعومتان من سوريا وإيران، بإسم شيعة لبنان حصرياً.

3. بإمكان الولايات المتحدة تشجيع دمج ميليشيا حزب الله في القوات المسلحة اللبنانية. في كل الأحوال، هذا الأمر يمكن أن يحدث فقط لو أن لبنان لم يكن متأثراً بنفوذ إيران وسوريا.

4. إن شن حرب أخرى ضد حزب اله يمكن أن يؤدي الى تدمير أكبر والى نهاية لبنان كدولة. أما تقسيم لبنان الى مناطق طائفية مختلفة فلن يحل المشكلة.

5. قد يُعتبر تغيير النظام في كل من سوريا وإيران أمراً مرغوباً، إلا أن كلفة ذلك لا تزال غير معروفة ومن المرجح أن تكون مرتفعة جداً . إن المسار البراغماتي هو الحل الأفضل الآن.

وفي تقرير صدر مؤخراً من قبل المجلس البريطاني للجنة العلاقات الخارجية المشتركة، قُدمت التوصيات التالية للحكومة البريطانية فيما يخص حزب الله:

" إننا نستنتج بأن حزب الله عنصر هام لا يمكن نكرانه في حياة لبنان السياسية، برغم أن نفوذه، الى جانب نفوذ إيران وسوريا، لا يزال نفوذاً خبيثاً في جوهره. كما أننا نستنتج أيضاً بأن على الحكومة (البريطانية) تشجيع حزب الله على لعب دور في الحياة السياسية اللبنانية السائدة، بما أن الحركة لن يتم نزع سلاحها واقعياً إلا من خلال عملية سياسية. وإننا نوصي بأن على الحكومة القيام بحوار مباشر مع نواب حزب الله المعتدلين في البرلمان. على الحكومة الإستمرار برفض الحوار مع الجناح العسكري لحزب الله".

ليس هناك حالياً شيئ من هذا القبيل، ما يعني جناح عسكري أو سياسي داخل حزب الله. إن التحدي يقع في العثور على طريقة لدق إسفين بين الإثنين.